مجموعة قصصية
مفاتيح
ريما محمد

غلاف داخلي
سرد

مفاتيح....

ريما محمد مطيع

2007

–إهداء–

إلى كل من علمني حرفا"

إلى كل من يؤمن أن الحرف أكثر من رسم و صوت
إلى زوجي الذي كان له الدور الأكبر في تشجيعي على إصدار هذه المجموعة
إلى بناتي و ابني

إلى العزيزة بريهان قمق التي كان لكلماتها الرائعة لي تأثيرا" قويا" في حثي على الاستمرار في الكتابة

إلى كل من يقرأ هذه الكلمات
أهدي مجموعتي هذه

ريما

جدتي .....

ترى ماذا يعني عالم العجائز بالنسبة للصغار؟
بالنسبة للبعض قد يعني موضوع سخرية وتندر ، وقد يكون موضوع رعب وعقاب ، أو قد يكون رمزا للحنية والمحبة ، وقد يرتبط بخيال البعض بقصص ما قبل النوم هذا بالنسبة للآخرين أما بالنسبة لي و بفضل جدتي فقد كان شيئا آخر...

منذ وعيت على الدنيا كما يقال وجدتي تعيش معنا أو بالأصح تعيش في غرفة جهّزها لها أبي على سطح بيتنا، لم تكن تتعامل معنا إلا نادرا ولم تكن تنزل إلى بيتنا إلا في مناسبات خاصة جدا ولم أكن أدري كيف كانت تقضي وقتها ، لم تكن تعاني من أمراض ولكنها وضعت نفسها في هذه العزلة بعد وفاة جدي كما فهمت .

كان يوما عاديا لكن فيما بعد بدأت أراه مميزا في حياتي حين دخلت البيت ووجدت أمي لا تقوى على الصعود إلى السطح لتقديم الطعام لجدتي كما هي العادة وطلبتْ مني ذلك ، ترددت في البداية كمن يهم في الدخول إلى مغامرة مجهولة النتائج فلم أكن قد صعدت الى غرفة جدتي أبدا" ولكن نظرات أمي و كلماتها القليلة جعلتني أحمل صينية الطعام وأصعد..... كنت تماما" كمن يمشي إلى المجهول مشوش الفكر أبحث عن الكلمات المناسبة التي علي قولهالجدتي عندما أقدم لها ما أحمل و أنا الذي لم يسبق له الحديث معها إلا مرات معدودة ..,لا أدري كيف صعدت درجات السلم و كيف انتهت

هـذه الـدرجات بسـرعة و هـي الـتي كنـت أحسـبها كثـيرة.....لم أسـتوعب إلا وجـدتي أمامي..... أومأت لي بأن أضع الطعام جانبا ,كنت مازلت واقفا عند باب غرفتها ,لا أدري لماذا أحسست بأن هذا عالم أخر لم أعرفه من قبل .....كانت الغرفة في منتهى التواضع....أجلت نظري في محتويات الغرفة القليلة.... بنظرة واحدة استوعبت عيناي كل ما في الغرفة ....أشياء بسيطة تكاد لا تذكر....لمحت من ضمن هذه الأشياء مفتاحا كبيرا معلقا على طرف الجدار..... فهمت قصته فيما بعد.

في أحد الأركان كانت حقائب قديمة جدا ...أدركت أنها تلك التي كان يحكى لي أبي أحيانا عنها بأنها بقيت جاهزة وتحت الطلب عندما كان جدي يستمع للمذياع في انتظار إشارة العودة !

كانت غرفة لها جو خاص ولها رائحة خاصة ، تجرأت أكثر وتفحصت وانتبهت إلى شجرة البرتقال .....كانت أغصانها تمتد إلى نافذة الغرفة .... تلك الشجرة التي كانت ربما الطلب الوحيد الذي طلبته جدتي من أبي وأصرَّت عليه ....لم تتحدث جدتي معي تلك المرة وأسرعت أنا في النزول من الغرفة و كأنني لا أكاد أصدق أو أستوعب بأن المهمة المغامرة التي أوكلتني أمي القيام بها قد انتهت بكل هذه البساطة .مغامرة الصعود إلى غرفة جدتي جعلتني أحس بأنني انفتحت على عالم خاص ذي نكهة خاصة .

وأصبحت فيما بعد أتقصَّد التواجد في البيت وقت إرسال الطعام إلى جدتي لأقوم أنا بالمهمة وأصعد إلى تلك الغرفة ذات النكهةالخاصة .

أيمكن لغرفة أن تختزل الزمان و المكان ؟؟ أهذا ماكانت جدتي تفعله أو بالأحرى تظن نفسها بأنها تفعله ؟؟

يوما بعد يوم أصبحت علاقتي مع جدتي مميزة وقوية وكان ذلك محل استغراب الجميع ... فلم تكن تقريبا تكلم أحدا ... حدثتني عن أشياء كثيرة ... حدثتني كيف كانت حياتها في السابق في قريتها وكيف كان بيتها وبساتينها ... وكيف كانت تخطط لزواج أبنائها وإبقائهم هم وزوجاتهم وأطفالهم حولها في البيت الكبير ....لم يكن يخطر على بالها أن الأمر سينتهي بها في غرفة فوق سطح بيت واحد من أبنائها في بلدة ليست بلدتها ! وعندما كانت تصل إلى هذه الصورة كانت الدموع تكاد تسقط من عينيها على وجهها الذي حفرته الأيام ولكنها تتمالك نفسهاو تنتقل إلى الحديث عن الزمن المائل الذي مهما حاولت إصلاح اعوجاجه وتعديله يميل في ناحية أخرى ... كانت تتمتع بحكمة كبيرة قلما أجدها عند أحد أخر .... باختصار كانت تفهم الحياة ونفسيات البشر ولكن ما كانت لا تستطيع أن تفهمه هو لماذا حدث هذا معها ؟؟!!

كنت ألجأ إليها في مواقف كثيرة ولكن بعض الأمور لا أجرؤ على مصارحتها بها .... لكنها كانت كمن تحس بي .....أذكر حين انتهيت من دراستي الثانوية كنت أنوي إكمال دراستي في أمريكا وربما الاستقرار هناك بعدها... وفرح الجميع حين حصلت على القبول ...

ولكن نظرات من عينيها كانت كافية لان أنزع هذه الفكرة تماما من رأسي ...أكنت أجرؤ على القول أمامها بأن هذه أفضل طريقة للوصول إلى بلدتنا ؟؟ بالتأكيد لا و ما كانت لتقتنع إلا بأن أفضل الطرق أقصرها , وما زلت حتى الآن حين تراودني رغبة في بعض التصرفات أو أحتار في بعض الأمور أتخيلها أمامي واستلهم من نظرات عينها ماذا يمكنني أن أفعل أو لا أفعل ...

حين توفيت جدتي كان حزننا كبيرا .... ولكن المشكلة الأكبر كانت ماذا نفعل بحاجياتها ؟؟ وماذا نفعل بغرفتها ..فلم يكن أي منا ابتداء من أبي يجرؤ على التصرف في أي شيء يخصها ... وكأن كل ما يخصها له قدسية خاصة ..

مع مرور الأيام عرفت أن جدتي ليست كغيرها من الجدات أو العجائز ... كانت أكثر من ذلك .... كانت قضية .

أزهار ذابلة ....

كانت تبحث عن اسمها في دفتر التوقيع ، على الفور أدركت أنها مستجدة وبنظرة فضولية لا شعورية قرأت الاسم وأنا أنتظر دوري للتوقيع، نظرت إلى وجه صاحبة الاسم وهي توقع قربه آه ...ترى هل هي نفسها أم مجرد تشابه أسماء ؟! وفي نفس الوقت رفعت عينيها، التقت عينانا وكأنها فهمت ما يدور بخاطري فابتسمت ابتسامة صغيرة فسَّرتُها بالإيجاب على الاستفسار الذي كدت أنطق به ولكنها مضت.

سألتني إحدى الزميلات : هل تعرفينها ؟!

أجبت باستغراب: ألم تقرأي الاسم ؟

ردت بلا اكتراث: قرأت ولم أنتبه لشيء

أكملت باستغراب: يبدو أنك لا تقرئين ولا تطالعين، لا أنت ولا أطفالك.

عاودتْ الاستفسار: أهيَ صديقة ؟

أجبت: آه ...نعم، نعم.

ردت: ولكن كأنها لا تعرفك!

أجبت: وهل من الضروري أن تعرفني حتى تكون صديقتي ؟

كيف أشرح لهذه الزميلة كيف يمكن أن تحس برباط وصداقه تجاه شخص دون معرفته وإنما فقط من خلال كتاباته وأفكاره، ولو شرحتُ، ترى هل كانت ستفهمني ؟! أشكُّ في ذلك !!

مضينا في طريقنا وفي داخلي شعور بالغبطة والسعادة فلربما مثلها يغير شيئا من رتابة وجفاف العمل وأساليبه الجامدة المكررة أو يضفي عليه لمسة خاصة ...
من يدري ربما !!!

في صباح اليوم التالي عندما دخلت الصالة للتوقيع، أحسستُ أن بها شيئا مختلفاً، أجلت بنظري في المكان بسرعة , وبالفعل كنت محقة ، فقد كان هناك بعض الأزهار الجميلة، لم أشك لحظة أن صديقتي هي التي وضعتها في ذلك اليوم وبقية الأيام ...مضت أيام لم أرها فيها إلى أن شاهدتها في الاجتماع الذي تعقده المديرة في بداية العام الدراسي، كانت تقريبا الوحيدة التي تشعّ نشاطاً وحيوية، تناقش وتقترح بكل ثقة ووضوح وأحسست كأن هذا ضايق البعض...

لكزتني من بقربي قائلة : من هذه المتفلسفة ؟!
أجبتها باقتضاب لتسكت،،، ولكنها استمرت في الكلام باستغراب: وماذا تفعل هنا ؟ هنا شغل يا حبيبتي وليس كلام كتب !!!

أجبت: ولكن ألا ترين أنها على حق فيما تقول؟
ردت: ولم هذا التفلسف؟! وهل سيغير الكون؟! فلتقل المديرة تعليماتها كما في كل عام وننتهي، هي تقول ما تريد ونحن نفعل ما نريد.

لم أرد على زميلتي وتابعت كلام الصديقة، ذكرتني بحماسي لعملي في البداية والذي بدأ ينطفئ شيئا فشيئا تحت رتابة الروتين والواجبات اليومية وتنفيذ التعليمات دون نقاش...من يدري، ربما تنجح فيما فشلت أنا فيه ....

مضت أيام وأيام دون أن أرى صديقتي سوى مرتين، كانت إحداها عندما دخلتُ المكتب الذي تجلس فيه ، كانت منكبة على دفاتر الطالبات تصححها وبالكاد أحست بوجودي وردت السلام ومرة أخرى صادفتها على أحدالسلالم تحمل دفاتر الطالبات وبالكاد يظهر وجهها الذي لمحته ولكنني أحسست فيه شيئاً قد تغيّر، شيئاً ما انطفأ في عينيها وابتسامتها بهتت كثيرا أو ربما هكذا خيّل إليّ، شعور غريب تملكني جعلني أحس بالقلق على صديقتي ، أحسست أن هناك الكثير الكثير ينتظرها ولكن ربما شعوري في غير محله، بالتأكيد هي واعية وقادرة على التصرف بحكمة وروية!

حاولت أن أطمئن نفسي بهذه الكلمات إلى أن كان ذات صباح.... دخلت الصالة للتوقيع كعادتي، شيء ما تغيّر، أمعنت النظر، كانت ورود صديقتي التي اعتادت أن تضعها باستمرار ذابلة ، أحسست بغصّة، أمسكت القلم لأوقّع في الدفتر ولكنني لاحظت أن خطاً أحمر قد وضع على اسم صديقتي وعلى امتداد الصفحة، سألت باستغراب فأجابتني إحداهن: استقالت ...، وأكملت باستهجان: كانت تريد أن تغيّر كلّ شيء ..كل شيء لا يعجبها ، منذ أيام كانت تريد أن تعطي الدرس في الحديقة وكانت .....

أجبتها مقاطعة: وماذا في ذلك؟!

تجاهلت سؤالي وأكملت: منذ البداية أحسست أنها لا تصلح للعمل!!!
فكرت إذا كانت هي لا تصلح فمن يصلحُ إذاً؟!....آه هكذا ببساطة تستقيل بالتأكيد ليس ببساطة !!

كنت أتوقع أن يتضايق الكثيرون لترك صديقتي العمل ولكن الأمر مرّ بشكل عادي جدا باستثناء بعض التعليقات السخيفة، ترى لماذا يفرح البعض بفشل الآخرين ؟؟!!!
أحسست برغبة كبيرة في أن أحدثها،لم أكن أعرف عنها الكثير سوى قصص الأطفال التي كانت تكتبها و التي كان أطفالي يحبونها جدا" .

سألت عن هاتفها أو عنوانها ولكن للأسف لم تكن قد تركت وراءها غير هذه الأزهار الذابلة!! وحتى هذه لم ينتبه إليها الكثيرون!! ترى لماذا تذبل الأزهار باكراً أحياناً ؟ لماذا لا يحس الكثيرون بذبولها ؟لماذا لا يحرّك الذبول شيئاً في النفوس؟ لماذا ؟...لماذا؟!
أما من طريقة لإطالة عمر الورود ؟؟

الوصول.....

لا داعي للانتظار أكثر، تحسنت الظروف أم لم تتحسن سنسافر...قالت في نفسها وهي تحضّر حقائب السفر وأطفالها يتنططون حولها وبزعمهم أنهم يساعدونها....وأخيرا بعد سنوات سنسافر , علّق أحدهم ...يا لهؤلاء الصغار كم حرمتهم من السفر...! في كل مرة في موسم الاجازات يسألون السؤال المعتاد، إلى أين نسافر ؟..... نحن طبعا كالعادة، لن نسافر!! ماذا تفعل لهم ؟ دائما تقول لا يوجد أي مكان يستحق أن نسافر إليه ونقضي الإجازة فيه إلا مكان واحد....عندما تتحسن الظروف بإذن الله سنسافر..

بطريقة أو بأخرى وبعد جهد حصلت على خارطة لذلك الجزء الكبير الصغير من العالم الذي هو لها رغم أنف الجميع ...أحاطتها بإطار وعلقتها في غرفة الجلوس ..وكان كلما سمع أطفالها باسم مدينة أو قرية أسرعوا يبحثون في الخارطة حتى غدت شغلهم الشاغل ..كانت بالنسبة لها أجمل من كل لوحات العالم , تحب أن تطيل النظر إليها و تعجب للنقاط الكثيرة المتقاربة التي تغطي جزءا"كبيرا" فيها

في صغرها كانت تلوم أمها وأباها ..لماذا لا أعرف كل نقطة في هذه الخريطة ؟ لماذا لا أعرف إلا البلدة الصغيرة التي نعيش فيها ؟...

كانت تحدّث نفسها بأنها عندما سيصبح لديها أطفال ستريهم كل بقعة في هذه الخارطة..لم تكن تعلم بأنهم سيكونون أقل حظاً منها ...!! و لكن لا بأس ستريهم ما تستطيع .

أخيراً بدأت الرحلة القصيرة الطويلة، إجراءات كثيرة، الحقائب أنزلت عدة مرات وأعيد تحميلها وهم انتقلوا أكثر من مرة من مركبة إلى أخرى...أحسّت بأن ما كانت تخشاه ربما يحصل ...بدأ الأطفال يملون ويتعبون وهي تحاول تشجيعهم، أخيرا هي نفسها بدأ الغضب يتسلل إلى نفسها وتحاول أن تضبط نفسها ...أكثر ما تخشاه أن تنفجر في أبنائها ...انها تحاول أن تجعل هذه السفرة شيئا جميلا ولكن كيف من الممكن أن تغطي كل هذه المرارة وهذا التعب ؟؟!!

بالقرب منهم كان هناك أناس آخرون يبدو أن أمورهم تسير بيسر ومرونة ..سأل أحد أبنائها ...أجابته أنهم يحملون جنسيات أخرى، لم يقتنع : أي أنهم مثلنا تماماً ويتكلمون العربية ؟؟ أجابت: هم مثلنا تماماً ولكن حصلوا على جنسيات أخرى، أتى الجواب الذي تخشى أن تسمعه: إذن لماذا لا نفعل مثلهم ؟؟...نظرتها كانت كافية لإسكاته ....!يا لهذا الصغير لماذا تلومه وهي نفسها فكّرت في ذلك ذات يوم ..ولكن لماذا تتعب نفسها وهي تعلم أن قلبها سيبقى معلقاً هنا ؟

لقد حاولت وخاضت التجربة بنفسها واقتنعت انها لا تستطيع ..قلبها ليس بيدها ...انه معلق هنا ...بل مزروع هنا ..... جذورها و فروعها و كل شيء هنا , فلماذا تتعب نفسها في بلاد العالم ولماذا تترك ما لها للغير ؟ ...انتبهت على أحد أبنائها يسأل : أمي ألم تقولي لنا بأن المسافة قصيرة...لماذا لا نمشي ؟ لقد مللت ...ماذا ننتظر ؟
آه ....كم شرحت لهم قبل السفر الاجراءات وكل ما سيواجهونه ولكن يبدو أنها يجب أن تعيد مرة أخرى....

إحدى النسوة اللواتي ينتظرن مثلهم تتطوعت بالاجابة: ننتظر التفتيش .....!
سأل الصغير: ولماذا يفتشوننا ؟؟ ...
أجابت : ذل وقلة قيمة .....

نظرت إلى تلك المرأة ... كيف تقول هذه الكلمات للصغير هكذا بكل بساطة؟ ركزت في عينيها ...مزيج من القهر والألم والتحدي في نفس الوقت ...قالت مستدركة: هذا شرف وليس ذل ...نظرت المرأة بشيء من الاستنكار والسخرية ... أكملت بصوت حاولت قدر استطاعتها أن يبدو هادئا" : يفتشوننا لأننا لصوص أم مهربو مخدرات ؟!

...أسرعت بالرد : لا لا لا أبدا ..يخافون أن يكون هناك أسلحة أو ...
أشاحت عن المرأة بوجهها ....لقد فهمت و فهم صغارها و لا داعي لكثرة الكلام ...رفعت رأسها ..رأت قطعة باللونين الأزرق والأبيض ...أشاحت بوجهها مرة أخرى...انتبه ابنها إلى حركتها وضيقها ..أشار إلى ناحية أخرى قائلا": أمي انظري هناك كان ثمة علم يرفرف تاقت كثيرا إلى رؤيته ...ابتسامة عريضة ارتسمت على وجهها...انتبهت على صوت ابنها : لماذا هو صغير هكذا ؟؟....أجابت : لا تخف سيكبر....قال مشككاً : متأكدة ؟؟ ...ردت بحزم: متأكدة .....

ق.ق.ج

ق.ق.ج

استقامة

كان يستغرب لماذا يتصادم مع الجميع و لماذا حياته كلها مشاكل في مشاكل , فجأة انتبه إلى أنه يسير في خط مستقيم في طرق جميعها ملتوية !

***

ارهاب

قوية و صلبة كانت كالصخر و لكنها انهارت فجأة ذات يوم عندما سمعت صدفة فيروز تغني : (يا هوا ---خدني على بلادي) , لم تتمالك نفسها و دخلت الحمام تجهش في البكاء ثم ما لبثت أن أصلحت هندامها و زينتها و خرجت و هي تتمتم : يجب أن يمنعوا مثل هذا الغناء .

***

مكان

لم يفكر في يوم من الأيام في مكانها أو مكانتها .
كانت في المطبخ تقوم ببعض الأعمال المنزلية بينما هو يشاهد التلفاز عندما ذهب طفلهما ابن السنتين و سحبها من طرف ثوبها و أجلسها إلى جانبه .

***

بطولة

ارتدى بزته العسكرية و وقف أمام المرآة ليكمل إصلاح مظهره عندما سأله طفله الصغير ببراءة عن عدد المعارك التي شارك بها , لم يجد جوابا"

إلا أن يبصق في وجهه---- في المرآة .

***

حكمة

عندما كانت طفلة قالوا لها ماذا تفعل , و عندما أصبحت شابة قالوا لها ماذا تفعل و عندما تزوجت قالوا لها ماذا تفعل و الآن أصبحت عجوزا" و يبدو

أنهم نسوا أن يقولوا لها ماذا تفعل !!

***

حزن و فرح

مضت سنوات لم أزرها في بيتها .
تغيرت صديقتي لا أعرف كيف , في عيونها فرح اعتدته و زاد عليه حزن لم اعتده .
بحثت عن زاوية المكتبة الجميلة التي تعتز بها , لم أجدها , كان مكانها لعب أطفال
وقفت بينها صديقتي و في عيونها حزن و فرح ما زالا يتصارعان

***

عيون

فاجأته الترقية كما فاجأت الجميع و فاجأه المنصب ربما أكثر من الجميع ,لم يعرف كيف سيضع عينيه في عيون الآخرين و خاصة اولئك الأكثر استحقاقا" منه , أخيرا" و بعد تفكير طويل , اهتدى إلى أن يرفع أنفه عاليا" كي لا تلتقي عيونه بعيون الآخرين .

***

تميز

كانت متميزة متألقة يحيط بها الأصدقاء و الأحبة قبل أن يقنعها أحدهم أن القمر يبدو أكثر صفاء و بهاء و جمالا" عندما يكون وحده .
أصبحت وحيدة------ و لم تزدد جمالا" .

***

أدوار

كانت عيونه تمتلىء حبا" و هويحدثها يحاول استعطافها إلى حد الذل , و كانت عيونها تمتلىء تمردا" و رفضا" إلى حد القسوة و هي تستمع إليه , و عندما وافقته امتلأت عيونها استكانة و رضوخا" إلى حد الذل و امتلأت عيونه تمردا" إلى حد القسوة .

المفاتيح .....

المفاتيح

لا أعرف منذ متى بدأت قصة المفاتيح معي، ربما منذ أيام الطفولة حيث كنّا نسكن بيتاً له حديقة وبوابة خارجية ولم نكن نستخدم المفاتيح فقد كنا عادةً نغلق البوابة الخارجية وباب البيت الرئيسي إغلاقاً عادياً دون مفاتيح حتى الحمام والمرجاض لم يكن لهما مفاتيح، كان يقتصر استخدام المفتاح في بيتنا على غرفة أمي التي اعتادت أن تخبئ فيها كل ما تريده أن يكون بعيداً عن أيادينا من حلوى وغير ذلك وما عدا غرفة أمي فلا يوجد مفاتيح , ببساطة كانت المفاتيح في بيتنا من الأدوات التي لا نتعامل معها , إلا إذا أردنا مغادرة البيت جميعاً وهذا نادرٌ ما كان يحصل ، فإذا أردنا مغادرة البيت جميعا" ,كنا نبحث ونبحث عن مفتاح البيت الذي ننسى أين نضعه إلى أن نجده ومهما حرصت أمي على

الاحتفاظ به والانتباه إلى مكانه كان المشهد يتكرّر كل مرة كنا نريد الخروج جميعاً من البيت , نبدأ في البحث عن مفتاح البيت إلى أن نجده والذي يجده يُشعرنا وكأنه حقق انتصاراً عظيماً، ربما من هذه اللحظة ,لحظة الانتصار الكبير في العثور على المفتاح ترسب في أعماقي أن المفتاح شيء ثمين وتكرّس لدي الاهتمام بالمفاتيح.

عندما كبرت قليلاً استطعت أن انتزع انتزاعاً حق تملك درج في كومودينو قديم في بيتنا لم يكن يثير اهتمام أحد ولم يكن هذا من عاداتنا في البيت حيث كل شيء للجميع وليس من عادة أحد الاستئثار بشيء لنفسه، بحثت في البيت إلى أن وجدت له مفتاحاً كان أول مفتاح خاص بي في حياتي وكنت أوليه اهتماماً كبيراً وأحتفظ به في ميدالية جميلة، أحرص كل الحرص على مكانها، كنت أضع في الدرج بعض الأشياء البسيطة الخاصة بي وأهم ما كان فيه دفتر يوميات كنت أسجل فيه خواطري وبعضاً من يومياتي وكنت لا أتخيل أبداً أن يقع بين يدي أحد فمن منا يطيق أن ينظر أحد إلى دواخله ؟!

باءت جميع محاولات أفراد الاسرة استرجاع الدرج مني بالفشل واستبسلت في الدفاع عنه إلى أن يئسوا مني ومن درجي واستسلموا للأمر الواقع مع الوقت زادت مفاتيحي وأصبح لدي أيضاً مفتاح دولاب ثم تطور الأمر أكثر عندما أصبحت طالبة في الجامعة حيث أضيف إلى سلسلة مفاتيحي مفتاح غرفتي في سكن الطالبات وعندما أصبحت موظفة أضيف مفتاح مكتب وبعد زواجي زاد على سلسلتي مفتاح بيت، كانت كل مرحلة في حياتي تترافق مع زيادة في عدد المفاتيح وأنا أزداد سعادة وحرصاً على ثروتي، أشتري الميداليات وأتفنن في انتقائها فتارة رسم لبرجي وتارة لاسمي أو أول حرف منه وهكذا ومع

ولادة أطفالي واحداً تلو الآخر زادت مفاتيحي , فلكل دولاب ولكل درج في البيت مفتاح، وحدها المفاتيح تشعرني بأن كل شيء في البيت تمام وأن الأمن والترتيب والنظام وكل ما أريده محقق في البيت وكل شيء مستقر كما أريده أنا، وإذا نسيت صدفة استخدام مفتاح و إغلاق درج أو دولاب أفزع وأهرع إلى المفتاح ، المفتاح وحده يشعرني بالأمان وبأنني أسيطر على كل شيء , غير آبه لنظرات أطفالي الغاضبة إلى مفاتيحي التي كانت دائماً تحسم الأمور لصالحي في أي تمرد منهم ودائماً ما كنت أدعو للذي اخترع فكرة المفاتيح إلى أن كان يوم.

ذهبت بعد عصر أحد الأيام إلى السوق واصطحبت أطفالي معي وعند عودتنا وقبل وصولنا للبيت بقليل مددت يدي إلى حقيبتي أبحث عن سلسلة مفاتيحي وقد كان من عادتي دائماً أن اتناول سلسلتي من حقيبتي قبل الوصول إلى الباب بقليل ولكن ولصدمتي الشديدة لم أجدها، بحثت ..وبحثت ولم أجدها ، .....يبدو أنني فقدتها في أحد المحال الكثيرة التي دخلناها في جولتنا في السوق..! ،كنت مرتبكة جداً لا أعرف ماذا أفعل، أحسست بأني فقدت السيطرة على أبسط الأمور ولم أعد أستطع التفكير، بعد تردُّدٍ شديد ووقت قصير اشار عليّ ابني الأكبر بأن يتسلق السور ليفتح لنا البوابة لندخل على الأقل إلى الساحة الخارجية للبيت ووافقت طبعاً وحمدت الله من كل قلبي أنني لم أغلق البوابة الخارجية بالمفتاح وبدأت أساعده في تسلق السور الذي تم بدقائق معدودة حسبتها ساعات طوال حيث لم يبق سيارة في المدينة إلا ومرت من أمام بيتنا في تلك الدقائق والجميع ينظر إلينا ، باختصار أصبحنا "فُرجةْ" ، وأخيراً تم فتح الباب الخارجي ودخلنا جميعاً وجلسنا على ما تيسر في ساحة البيت، لم يكن زمن الهواتف النقالة قد حلّ وهذا يعني أنه لا يمكنني الاتصال بزوجي أي علينا أن ننتظر أكثر من ساعتين لحين انتهاء دوامه

المسائي وقدومه إلى البيت ليفتح لنا الباب، بعد طول انتظار وصل زوجي ودخلنا البيت وهنا بدأت المشكلة تكبر بدل أن تنتهي فكل شيء في البيت مغلق بالمفتاح، الدواليب والأدراج... ومفاتيحها جميعها في سلسلتي المفقودة، الغرف كانت مفتوحة باستثناء غرفتي، وبدأنا نحاول فتح ما نحتاجه بما تيسر لنا من أدوات،من مفكات وسكاكين وغيرها ..، كل ذلك كان يتم بين تقريع زوجي وتذمّر أبنائي وأنا صامتة، أهكذا تخذلني مفاتيحي فجأة ودون مقدمات ؟!

كنت أتجنّب النظر في عيون أطفالي المتعبين الذين يريدون أن يناموا حتى دون عشاء، كانت عيونهم تنطق بمزيج من الشماتة والسخط والتذمّر...!، هل يعرف الأطفال الشماتة؟!..لأول مرة أحس بما كنت أفعله بأطفالي وبمقدار القمع الذي كنت أمارسه بحرمانهم مما يريدون، لم أكن أصلاً أفكر بما يريدون، كنت أفكّر فقط بما أريد أنا، أثناء سماعي لعبارات التقريع واللوم والغضب ومطالبتي بعدم استخدام المفاتيح ثانية... التمعت في رأسي فكرة، رفعت رأسي بكل ثقة وتكلّمت لأول مرة منذ دخولنا البيت و قلت كمن يدلي بتصريح هام : في المرة القادمة سأحرص على أن أحتفظ بأكثر من نسخة.....

جريمة .....

جريمة

على غير عادته استيقظ من نومه في الليل يحس بعطش شديد، لم يشأ أن يزعج أحد، قام بهدوء لم يعتد عليه متوجِّهاً إلى المطبخ دون أن يشعل نوراً، يفكر لماذا هذا العطش الشديد محاولاً أن يتذكر ما تناول على عشائه والذي سبب له ما يحس به من جفاف في فمه وحلقه، شرب كثيراً من الماء قبل أن يعود إلى غرفته حاملاً كوباً ممتلئاً بالماء، حانت منه التفاتة إلى النافذة المفتوحة، أحس بشيء مريب يحدث في الخارج، لا يكاد يسمع أي صوت ولكنه يحس بأن هناك شيئاً ما، على غير عادته اقترب من طرف النافذة المفتوحة بهدوء وحذر شديدين، كان احساسه في محله، ارتاع لما رأى، سيارة من السيارات التي اعتاد وغيره رؤيتها...بعض الجنود في داخل السيارة والبعض الآخر قربها بينهم شخص ما يغطي وجهه ولا يبدو منه سوى العينين، يسمع همساً والشخص المجهول يشير بيديه هنا وهناك إلى بعض البيوت، فهم الوضع بسرعة، حاول أن يدقِّق النظر علَّه يعرف من هذا الشخص المجهول، لا بدّ وأنه أحد سكان المنطقة ولا بد وأنه يعرفه ولكنَّ الظلام كان شديداً فالسيارة مطفأة دون أنوار ومصابيح الشارع مكسّرة لا تعمل منذ الأحداث الأخيرة

والوجه المجهول مغطّى جيداً لكنه أبى الاستسلام فالوضع أمامه، كيف يترك هذا المجهول ينجو بفعلته ؟!

دقَّق النظر أكثر ، من الواضح أن الشخص أعسر يستخدم يده اليسرى وأثناء حركة يده تظهر الساعة التي في يده بأضوائها الخافتة ، أحس وكأن هذا المجهول مألوف لديه، طريقة وقفته وحركته وحركة يده..، لمعت في رأسه فكرة انتفض لها، ..."مستحيل" قال وقد كاد ينسى نفسه ويرفع صوته، في الحال توجّه إلى السرير المجاور إلى سريره، وقف ينصت لعله يسمع صوت تنفس أو أي شيء ، كان من عادة أخيه أن يغطي رأسه ووجهه عند نومه..انتظر قليلاً ثم ودفعة واحدة رفع الغطاء عن السرير....، وجد السرير فارغاً إلا من وسادة وضعت وعدة أغطية ليظهر وكأنَّ أحداً في السرير، أسقط في يده، "معقول" ،مستحيل،....."بدأ يفكر في سرعة ماذا يفعل، هل يواجهه، وإذا فعل فماذا ستكون ردة فعله؟!....ربما وصل مرحلة لا يمكنه التراجع فيها، ربما يغادر البيت إلى غير رجعة ويفعل كما يفعل البعض يصبح عمله على المكشوف لا يأبه لشيء! أمعقول؟ كيف وصلت به الأمور إلى هذا الوضع ؟ لماذا..؟ لا ..لا يوجد لماذا ربما يوجد كيف ولكن لماذا فهذه غير واردة على الاطلاق...كيف يحدث هذا لأخيه وهو لا يعلم ؟كيف ؟كيف ؟

بدأ يتذكّر أخاه في الفترة الأخيرة والأشياء التي يشتريها والتي كان يدعي أنه يعمل في أحد المخابز ويشتريها من المال الذي يحصل عليه، شاب في السابعة عشرة من عمره، كيف يتورط في هذا الأمر، أحسَّ بأن رأسه سينفجر إذا استمر في التفكير، عاد إلى سريره متظاهراً بالنوم وبعد فترة لم تطل دخل أخوه الغرفة بهدوء شديد واندسَّ في فراشه كأن شيئاً

لم يكن وما لبث أن استغرق في النوم أما هو فلم يستطع النوم كان يفكر ويفكر ماذا يفعل، في الأيام التالية حاول أن يتصرَّف بشكل عادي دونَ أن ينجح والجميع يسأله ما به وهو لا يأبه لشيء ولا يعرف إن كان يفكر أم لا ، كيف للذكريات الجميلة أن تصبح سياطاً ولهيباً ؟

كيف للأيام والساعات أن تطول وتصبح عبئاً ثقيلاً ؟

كيف للعشرة والأخوَّة أن تصبح ناراً وتعذيباً ؟

أيام قليلة مرّت حصلت في لياليها مداهمات واعتقالات وهو ما زال في حيرته، لم يطل به الأمر أكثر من ذلك، اتصل ببعضهم ووضع الأمر بين أيديهم، هم أقدر على تحديد الوضع وخطورته، كان الردُّ واضحاً أن يترك الأمر لهم ولا يتدخل في شيء، ظنّ أنه هكذا سيرتاح ولكن أبداً هذا لم يحدث فما زال الأمر يربكه ويشغله، فكرة واحدة كانت تريحه وتبعث قليلاً من الهدوء في نفسه أن يكون بعضهم هم الذين طلبوا من أخيه فعل ذلك تمويها" أو لهدف ما , نعم هناك أمور كثيرة مشابهة لهذا وسمع الكثير من القصص من هذا القبيل، كان هذا التفسير يريحه كثيراً ويتمنى في داخله أن يكون صحيحاً مع أنه لا يدري لماذا يستبعده...

يفكر و يفكر و يقلب الأمر من كافة الجوانب , يقرب احتمالا" و يستبعد اخرا" و .....ينتظر النتيجة

عيون فدوى .....

عيون فدوى

ببين عيون فدوى وعيوني مسافة يراها البعض أو هكذا يريدون شاسعة واسعة وأنا لا أرى أكثر من المسافة بين عيون شخصين يقفان بجانب بعضهما ليس أكثر.

لم تكن فدوى صديقتي مع أنها كانت قريبة جداً من قلبي وكنت أحبها ليس من أجل شعرها الأملس ولا من أجل البثور المنتشرة على بشرة وجهها الهاديء ولكن من أجل عيونها الحزينة الهادئة، عيون فدوى كانت دائماً ممتلئة حناناً وحزناً وحنيناً، صبية كانت ولكن كانت تبدو مهمومة وكأنها تحمل أثقال و هموم سنين وسنين، أكثر من مرة أهمُّ بسؤالها لماذا تبدين مهمومة كعجوز....ولكني أتراجع خوفاً من أن أضرب بسؤالي على وتر لا تحبُّ أن يمسه أحد وخوفاً من أن أجرح إحساسها الذي باءت محاولاتي بعدم المساس به بالفشل وأتت اللحظة التي جرحت فيها شعورها بسخافة عن غير قصد، أكثر ما كان يؤلمني الحنين في عيني فدوى الذي كان يعطيها لمسة سحرية أمّا أنا فكنت أحسه سياطاً تؤلمني وتوجعني وتشعرني بعجزي...و عجز الكثيرين.

لم أكن أعرف عنها الكثير فهي من مكان يصرُّ الجميع على أنه بعيد وأراه أنا قريباً جداً، كانت من أولئك الذين يسكنون ما اعتدنا أن نذكره بنغمات مختلفة ونسميه "مخيَّماً" ويصرُّ البعض أن لهم عالمهم ولنا عالمنا، لهم حياتهم ولنا حياتنا..وكان يغيب عن بال البعض أو لا يريدون أن يتذكَّروا أن لنا الوطن نفسه!...وهكذا كان كلُّ شيء يفسَّر على أنها "ابنة مخيَّم" ، لم أكن أرى في فدوى مكان سكنها و أصر على ذلك...كانت فدوى تهوى الرسم ، صحيح أنها رسمت نجيب محفوظ فبدا وكأنه طه حسين إلا أنها كانت ترسم بطريقة بسيطة وعفوية وجميلة...

الشيء الذي لم أكن أحبه في فدوى هو قامتها المنحنية مع أنها كانت صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة، كان انحناء ظهرها يغيظني وأود أحيانا لو أمسك جسمها من أعلى وأضغطه بين يدي لتستقيم ويرتفع رأسها إلى أعلى...

أكثر ما أحبُّ في فدوى بساطتها وعفويتها فأنا أحبُّ العفوية أوهكذا كنت إلى أن أوقعتني تلك العفوية في إشكال زاد الحزن في عيني فدوى وزاد الحب في قلبي لفدوى وكرهي لعفويتي ولساني الذي أبى إلا أن يجرح شعور الإنسانة الرقيقة التي لها مكانة شاسعة في قلبي... كان ذلك عندما أعطتني كتابها ذات يوم بدل كتابي الذي نسيته وعادة لا أنسى كتبي أو واجباتي ولكنه حظي الذي أراد أن يضعني في موقف صعب مع فدوى...و مع نفسي ....

وبّخها الأستاذ لعدم إحضارها كتابها وفي الحال سارعت بالقول بأن كتابها معي، أنا التي لم تحضر كتابها..حتى تلك اللحظة كان يبدو الأمر جميلا , فلا استغلال لزمالة أو صداقة أو خداع للأستاذ ..ولكن عندما سأل الأستاذ : لماذا تغطيان على بعضكما؟ هل أنتما صديقتان؟ ..اندفع جوابان في نفس اللحظة من فدوى : نعم ...ومن لساني السخيف :لا....دفعة واحدة ودون مقدِّمات اعتقد البعض بل وربما الجميع أن المسافات الشاسعة بيني وبين فدوى ظهرت....وجبال وسدود قد ارتفعت، بدا لي الهمس ضجيجاً ونظرات العيون ناراً حارقة وأنا صامتة إذ اقتنعت أنه عندما لا يريد الآخرون أن يفهموا إلا ما يريدونه فمن الأفضل أن تصمت...

"لم أكن أقصد"

كيف أفهم الجميع الذين لا يهمونني...بل ما يهمني هو فدوى، كيف أفهمها أنني لم أقصد!!!

سنوات وسنوات مرت، أبحث فيها عن عيون فدوى لأفهمها ذلك فلا أجدها، أبحث عن أي عيون تشبه عيون فدوى فلا أجد، حين أقابل الكثيرين أنظر في عيونهم وأحدِّقُ جيداً علّي أجد عيون فدوى ولكني لا أجد..

ألا يوجد عيون تشبه عيون فدوى

البنك ...

البنك

كنت أجلسُ كعادتي على مقعدي في البنك وأمامي طابور العملاء والمراجعين كالعادة عندما لمحتها،...كانت كما هي منذ عرفتُها منذ سنوات، لكي أصفها لن أتحدث عن جمالها أو ثقافتها أو شخصيتها المميزة، سأختصر الكلمات وأقول "إنسانة محترمة مهذَّبة"، لها شخصية مميزة , كانت تقف في طابور أمام إحدى زميلاتي، تمنيت أن يتاح لي المجال لكي أقوم وأصافحها وأعبِّر لها عن شوقي وامتناني ولكنَّ المراجعين يزدادون ...فهذا يريد سحب مبلغ وهذا يريد إيداع وآخر يريد فتح حساب وهكذا ككل يوم ...ولكن اليوم وبعد رؤيتي لها ورغبتي في الكلام معها أحسستُ وربما لأول مرة بأن عليَّ عبئاً ثقيلاً أريد إنهاءه بأسرع ما يمكن... كنت أقوم بعملي بشكل الي و عقلي مشغول بسؤال ....ترى هل ما زالت تذكرني؟

هي تقريبا لم تتغير، هي كما هي , كما عرفتها منذ سنوات أما أنا فبالطبع تغيّرت، لم أعد تلك الطالبة الصغيرة بل كبرت ونضجت وأصبحت موظفة في بنك ارتدي ملابس أنيقة وأسرّح شعري بشكل جميل وأضع الماكياج على وجهي وارتدي الأكسسوارات الجميلة لكي أبدو أنيقة في عملي، هي تعرفني بلباس المدرسة ومظهر الطالبة ولكن بالتأكيد

ستذكرني فعدا عن أن ذاكرتها قوية كنت عندها طالبة مميزة وكنت أحبها جداً وأعرف أنها كانت تحبني وتشجعني دائماً وعندما سمعت ذات يوم بأني سأترك الدراسة وأتزوج لم تقل شيئاً ولكن بدا عليها الضيق مما جعلني أصرف النظر عن الموضوع...

زبائن البنك يتزايدون، أنظر فأراها وقد أتى دورها، تدخل في نقاش وجدال مع زميلتي موظفة البنك، بدا وكأنَّ الجدال يزداد ولكن هي كعادتها تحافظ على هدوئها وتبدو أنها تحاول إقناع الموظفة بشيء وهذه الأخيرة ترفض،اقتربت قليلا من زميلتي لأفهم الموضوع وأنا أداري وجهي كي لا تراني، كانت تريد سحب مبلغ من المال وليس لديها أي إثبات شخصية، لا جواز سفر ولا هوية ولا بطاقة بنك ولا أي شيء، زوجها قد أخذ كلَّ شيء إثر خلاف بينهما، قلت لزميلتي همساً بأنني أعرفها ولكنَّ الرد طبعا كان القانون والنظام، تردَّدتُ لحظة ثم أفهمتُ زميلتي ماذا تفعل وانسحبتُ وعدتُ إلى مكاني وفي الحال أملت هي بعض البيانات ووقّعتْ إحدى الأوراق التي انتهت إلى سلة المهملات وأخذت المبلغ البسيط الذي تريدهُ وخرجت وهي راضية...

مع أنني كنتُ في أشدِّ الشوق للكلام معها ..إلا أنني حمدتُ الله أنني لم أفعلْ..وأنها لم تراني...ولم تعرفني...لكي لا أحرجها، فالمبلغ الذي أخذته كان قد سحب للتوِّ من رصيدي....طبعا" دون أن تدري ....

جبان...

جبان

يمشي في المدينة الغريبة وحيداً كالمتسكع، يجوب شوارعها وينظر إلى كلِّ شيء....إنها المرة الأولى التي يسافر فيها وحده، قبل الزواج لم يكن والداه يسمحان له بالسفر وحده بحجة الخوف عليه وبعد الزواج لا يسافر إلا وزوجته معه، هذه المرة صمَّمَ أن يسافر وحده، لم يعر استغراب زوجته وشكَّها أيَّ اهتمام، كان مصمِّماً أن يكون حرَّاً من أي التزام بأيِّ شخص،...يريد أن يحسَّ بأن وقته ملكه يفعل فيه ما يشاء ويقضيه كما يحلو له، ...في البداية أحسَّ براحة وسعادة ولكن لم تمض سوى أيام قليلة حتى بدأ يحسُّ بالملل والضجر...كان يقضي معظم وقته يجوب الشوارع وأحياناً يجلس في أحد المقاهي، فقط ينظر وينظر....إلى أيِّ شيء وكلِّ شيء، المباني...الأشخاص....السماء....فجأة وقعت عيناه عليه، عجوز يلبس ملابس رثة يجلس على أحد المقاعد في إحدى الحدائق ويتحرَّك أحياناً هنا وهناك دون هدف...أحسَّ بضيق وحاول أن يبعد نظره عنه، لم يأت إلى هنا ليرى أو يراقب متشرداً .....ولكن مضت أيام وصورة العجوز لا تفارقه إلى أن رآه ثانية صدفة في إحدى الحدائق.

من الواضح أنه متشرِّد...لا يبدو كبيراً جداً في العمر...أيعقلُ أن يوجد في هذه المدينة الجميلة إنسان يعيش بهذه الطريقة!! ...كل شيء يبدو في المدينة جميلاً ...مفعم بالحياة

إلا هذا المتشرِّد...ترى هل يوجد كثيرون مثله ؟ ..ما الذي أوصله إلى هذا الوضع؟ تمنى لو يقترب منه ويحدِّثه ليفهم قصَّته ولكنه تذكَّر أنه لا يعرف لغة هذا البلد، ربما أنه مجنون أو معتوه ...ولكن لا يبدو عليه ذلك ...وحتى لو كان مجنوناً فالمجانين في هذه البلد بالتأكيد لهم أماكن يعيشون فيها وليس كبلده يتجولون في الشوارع....أوَ تراهُ فقد عزيزاً أو حبيبةً أو ربما كان غنياً وفقد أمواله ..!!

بدأت مخيلته ترسم القصص لهذا المتشرد ..تمنى لو أنه يعرف ولو القليل من لغة هذا البلد ليحدثه ...ولكن من قال أن هذا المتشرد من هذا البلد...ربما يكون من بلد آخر، جاء يبحث عن فرصة هنا وساءت الأمور معه ووصل إلى هذا الوضع، أمعقولٌ هذا !! نعم ولمَ لا ؟ ألم يسمع عن أشخاص غادروا بلده إلى بلاد أخرى يبحثون عن فرصة وانقطعت أخبارهم !! ألم يسمع عن ذلك الفنان العربي الذي قضى في إحدى هذه المدن بعد أن تراكمت عليه الديون وترك بلده ورآه البعض في آخر أيامه يتسول ليحصل على اللقمة ؟ ألم يسمع عن ذلك الشخص الذي لم يستطع الحصول على الجنسية في إحدى هذه المدن الجميلة فانتحر بأن ترك نفسه يتجمَّد في العراء؟ بدأت ذاكرته تستعيد مثل هذه القصص التي سمعها سابقاً ولم يهتم بها في حينها وللمرة الأولى أحسَّ بأن هذه المدينة غير جميلة كما تبدو بل قبيحة وقاسية، للحظة أحسَّ بالخوف فهو هنا وحيداً لم يخبر أحداً عن مكانه ولو حصل معه أي شيء فلن يحس به أحد ...ولكن وضعه مختلف...حاول أن يطمئنَّ نفسه ...فمعه أوراقه الشخصية ومال وفير ...ولكن يحدِّث نفسه ماذا لو حصل وفقد كلَّ هذا بطريقة أو بأخرى كأن يضيعه مثلاً أو يسرقه أحدهم، ...هل يمكن أن يحدث هذا ؟ نعم ولمَ لا ....في هذه المدن كل شيء ممكن وإذا حدث وحصل ماذا يفعل وماذا يكون

مصيره؟ أيكون مصيره مثل مصير هذا المتشرِّد؟ لم يكد خياله يصل إلى هذه الصورة حتى أحسَّ بهلع كبير، حاول أن يقنع نفسه أن هذا لن يحدث فكثيرون يأتون ويقضون أوقاتاً ممتعة ويعودون إلى بلدانهم فلماذا يجب أن يكون أقلَّ حظاً منهم ؟ كلَّما حاولَ أن يطمئنَ نفسه ...كان شيء في نفسه يقول: وماذا لو حصل ؟...يعلم أنه جبان ولكن ليس إلى حد أن يضيع سفره واستمتاعه لمجرد أن رأى عجوزاً متشرداً ،..لم يطل الأمر به ...حسم أمره بسرعة...ورتَّب أموره بسرعة.

بعد أيام قليلة كان في بيته يحدِّثُ زوجته أنه لم يستطع أن يستمتع بالإجازة بدونها وأنه افتقدها جداً في سفره وحين جلس إلى أصدقائه كان يحدثهم عن مغامراته الكثيرة المثيرة في تلك السفرة، قصص كثيرة اختلقها من خياله الواسع ولكنه لم يحدثهم أبداً عن العجوز المتشرد...فقد كان جباناً بجدارة.

الثوب...

الثوب

ل لكل إنسان حلمه...أو هكذا أنا أعتقد إذ لا أتصوَّر أن هناك إنساناً يمكن أن يعيش دون حلم يريد تحقيقه ...كيف يستيقظ كلَّ يوم ويبدأ يومه دون أن يكون في رأسه شيء يريد تحقيقه؟...بالنسبة لي بعد استلامي عملي ذي الراتب المتواضع كان حلمي أن أمتلك ثوباً مميزاً أرتديه في المناسبات الخاصة كتلك التي طالما رأيت عارضات الأزياء يتمخترن بها على شاشة التلفزيون أو يتألقن بها على صفحات المجلات...أعلم أن هذا فوق إمكانياتي براتبي المتواضع ...ولكن ماذا أفعل فهذا حلمي وعليَّ أن أعمل لتحقيقه، بدأت أقتطع من راتبي مبلغاً محدوداً كلَّ شهر...أحرم نفسي من أشياء عديدة أقنعت نفسي بأنها غير ضرورية ويمكن الاستغناء عنها واكتفيت بالضروري جداً كالمواصلات ومستلزمات أنوثتي الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها، همست إلى إحدى زميلاتي بخطتي وطلبت منها أن لا تخبر أحداً..وأنا واثقة أنها ستخبر الجميع وتوصيهنَّ بمثل وصيَّتي لها !!...كان هدفي أن لا أثير القال والقيل عندما يريني بثوب غالٍ ومميز....،أخيراً تجمّعَ لدي ثمن الثوب ولكن بقي عليَّ باقي المستلزمات من حذاء وحقيبة وأكسسوارات مناسبة تليق بالثوب المميز، عدت ثانية لعملية التوفير القسري، بعد مدة خلتها دهرا" كان لديَّ مبلغ من المال بالنسبة لي يعتبر كبيراً، بدأت بالسؤال والاستفسار عن أفضل المحلات ..كل واحدة من زميلاتي ترشدني إلى محل.. ...وكل واحدة تؤكد أن هذا المحل هو الأشيك والأفضل والأكثر أناقة..وأنا استغرب كيف يكنَّ جميعاً على حق ؟

أخيراً وبعد طول تردُّد حصلت على ما اريد ووضعته في خزانتي كأنه كنزٌ ثمين..صممت أن أجرِّب ثوبي مع كلِّ مستلزماته قبل أن أرتديه في أول مناسبة أمام صديقاتي ..بدأت كلٌ منهنَّ تدلي بدلوها:

-شكل القبة غير مناسب لوجهك

-اللون غير مناسب لبشرتك

-لا يبدو غالي الثمن..يبدو عادياً جداً

-الأكمام تظهر أكتافك عريضةً جداً

-قصة الحوض تظهرك ممتلئة....

و.....

كل شيء غير مناسب...

كنت أنظر في المرآة وأستغرب: كل شيء غير مناسب...اللون ، الموديل...فماذا بقي؟

إحداهنَّ كانت تنظر لي بصمت فقد نصحتني أن لا أسألهنَّ ...ولم أهتم لكلامها...

على كلِّ حال كلّ واحد حر في رأيه وذوقه...وكل واحدة قالت رأيها، إنه مجرَّد كلام ...ولكن ..لا مهلاً لم يعد مجرَّد كلام ..فها هي إحداهن تقوم من مكانها وتهجم على الثوب ...وبحركة سريعة غيَّرت شكل القبة بوضع بعض الأجزاء إلى الداخل وهي تقول : هكذا أجمل....وأخرى تقوم وتضمُّ جزءاً من الأطراف وترفعه على الجنب وهي تقول : هكذا أجمل ...وأخرى أحضرت شالاً ملوناً وربطته حول عنقي وهي تقول : هكذا أجمل ....أخرى حملت بروشاً كبيراً ووضعته على ما تبقى من القبة وهي تقول : الآن ...تمام !..

كل هذا وأنا صامتة أنظر في المرآة إلى ثوبي الحلم الذي تشوه ولم يبق من جماله جمال ...ولكن عندما رأيت إحداهن تحمل مقصاً تريد أن تقصَّ من الأكمام بدأت بالصراخ: ثوبي ..ثوبي ...

فتحت عينيَّ وأنا لا أكاد أستوعب ما الذي يجري ..ركضت إلى دولابي ..كان ثوبي الذي طالما حلمت به معلقاً ينتظرني كي أرتديه دون أن أنتظر رأي أحد.

شيء أكبر...

"غريبة هي الدنيا...وغريبة هي أحوالها وكل ما فيها: الناس والأفراد والظروف والعلاقات التي تربط بين الأفراد" ، كانت تفكِّرُ في ذلك وهي تنظر إلى أمها الجالسة تحيك الصوف بصمت وتنظر أحياناً إلى التلفزيون، إنها أمها أكيد....ولكن لماذا لا تحسُّ تجاهها بما يحسُّ به الناس عادة تجاه أمهاتهم ؟ ولكن ما يدرينا ماذا يحسُّ الناس؟ ربما كانوا كاذبين مدَّعين؟ هل من المعقول أنَّ كلَّ هذه العواطف التي يظهرونها لإمهاتهم كذباً وزيفاً؟ لم تكن أمها سيئة بل ربما كانت أفضل من غيرها..ولكن لماذا لا تحسُّ بأيِّ تعاطف معها؟ ..كانت أمها خيالية ..حالمة...تحلم بالحياة الجميلة التي لم يكن أبوها قادراً على توفيرها لها ..ليس بسبب فقر أو قلة مال...لا...ولكن هكذا هو لا يحبُّ الإنفاق أو الرفاهية..

كانت أمها تعيش في خيالاتها..دائماً تنظر إلى التلفزيون وتتحسَّر...تراقب كلَّ صغيرة وكبيرة في الفيلم الذي تشاهده، الثوب الذي ترتديه البطلة...الهاتف الذي تستعمله...الأريكة التي تجلس عليها....كل شيء...كل صغيرة وكبيرة تراقبها وتتحسَّر على حالها....لأنها لا تعيش مثل هذه البطلة السعيدة التي تمتلك كلَّ شيء.
كلَّما نشب خلاف بين أمها وأبيها، كان البيت يلفُّه الحزن والكآبة والتوتر إلا هيَ كانت تستمر في أمورها وكأنَّ شيئاً لم يحدث..كانت فقط تثور وتغضب إذا قال لها أحدهم أنها تشبه أمها..أمها كانت تقول عنها بأنها قاسية بلا قلب..أما هي فكانت تصف نفسها بأنها واقعية وقوية..كانت تنظر إلى أمها على أنها إنسانة ضعيفة لا تفعل شيئاً ...فقط تحلم ...نعم جميل أن تحلم ، ولكن ماذا فعلت لتحقيق أحلامها؟ لا شيء ..جلست تنتظر عريساً لعلَّ وعسى أن يحقِّقَ لها أحلامها..كانت أحياناً تناقشُ أمَّها في ذلكَ و أحياناً كثيرة تكون قاسية عليها فتأخذ أمها في البكاء وقد يصل بها الأمر إلى أن تدعو

عليها بأن لا تنعم في حياتها كما لم تنعم هي...وتكمل الأم المشهد في التحسُّر على شبابها الذي ذهب في تربية ابنة جاحدة قاسية ، هي لم تكن تأبه لذلك ..هي تعرف ما تريد...ستكمل دراستها ..وتعمل وتكسب المال...أوَ ليسَ أبوها يتبجّحُ بالمال الذي ينفقه عليهم ويذلّهم ويتحكَّم بهم وبأمهم بحجة إنفاقه عليهم ...! صحيح أنه كان يسيء معاملتهم ومعاملة أمها إلا أنها لا تتذكَّر أبداً أنه كان يضربهم أو يضربَ أمها ..ليس احتراماً لها وإنما احتراماً لنفسه ..فقد كان يقول: إنَّ الذي يضرب امرأة و"يتشطّر" على حرمة ليس رجلاً.....ولكن ماذا عن بقية مبادئه في الحياة؟ لا تعرف ولا أحد يستطيع مناقشته ، على كلِّ حال هي كانت ترى دائماً أن أمها هي المخطئة ...ومهما يكن فكل هذا لا يعنيها..وكلُّ ما في البيت لا يهمها: لا أمها الضعيفة ..ولا أبوها المتسلِّط ...إنها مسألة وقت بالنسبة لها ليس أكثر...بمجرَّد أن تستلم عملاً بعد التخرُّج ستجد شاباً متعلِّماً واعياً مثلَها يتفاهمان معاً على كلِّ شيء ...ويتزوجان ..لن يكون هناك أيُّ مجالٍ لإذلالها أو إهانتها فهي تعمل وتكسب مثله بل ربما أكثر..وهذا ما كان فعلاً...مشت الأمور كما رسمت لها تماماً...لم تكن سعيدةً فرحة ولكنها مطمئنة راضية إلى أن كان يوم اختلفا فيه اختلافاً كبيراً ...ليس مهماً من أجل ماذا وعلى ماذا...المهم أنها صدمت عندما هوى بكفِّه على وجهها ..عندها...أدركت أن الخطأ لم يكن في أمِّها وإنما في أبيها أو ربَّما .... في شيءٍ أكبر..

عندما لمحت وجهها في المرآة وهي تمسح دموعها..أحست و لأول مرة أنها فعلا" تشبه أمها.

علاج...

علاج

كانت سيارة الأجرة تسير بهدوء أحياناً وأحياناً أخرى تسرع قليلاً بما تسمح به الطريق، يجلس في المقعد الخلفي وبجانبه زوجته، حمد الله أن الراكبة الثالثة كانت امرأة ليجلس هو

قرب نافذة السيارة كما يحب وتنحشر زوجته على مضض في الوسط وزوج المرأة يجلس قرب السائق في المقعد الأمامي، يبهره جمال الطريق على الجانبين، تماماً كما لو أنه يراه لأول مرة...يحدِّق فيه ولا يشبع من مناظر الخضرة الممتدة على طول الطريق، يفكِّر كيف يكون لك كل شيء ويغدو لغيرك؟ ولكن من قال أنه لغيري!! ..يتنهد ..يحاول أن يطرد الأفكار الكئيبة من رأسه ولكن هيهات...يحاول أن يقنع نفسه فقط تمتَّع بهذا الجمال الربّاني وكأنَّك تنظر إلى لوحة جميلة، هل يجب أن تمتلك اللوحة لكي تستمع بالنظر إليها ؟ ولكن إذا كانت اللوحة لي وسرقها أحدهم فكيف أستمتع بالنظر إليها ؟ ....كأنَّما أفكاره الحانقة بدت على قسمات وجهه فزوجته أخذت تربت بهدوء على يديه ..."مسكينة زوجتي، لقد ابتليت بي " ...يقول بينه وبين نفسه ...."تعلم أن المشوار كلَّه لا يعجبني وأنني لم آت معها إلا لإرضائها "....تحايلت عليه بكل الطرق من بكاء وغيره وارتدت أقنعة مختلفة لاقناعه،...تارة الزوجة المسكينة المنكسرة ...فالقوية الشرسة الثائرة تارة أخرى...إلى أن رضخ ..وافق على مضض.."أم فلان ذهبت وزوجها إلى هذا الطبيب..وأم علّان ..وهكذا...تستمر في تعداد القائمة ، لكن أنا غير ...لماذا ؟...لماذا أنت غير ؟...كيف تفهم ؟...كيف أفهمها ؟...كيف أذهب إليهم وماذا أقول للطبيب "افحصني ..انظر ماذا فعلتم بي وما الذي أتلفتموه في جسدي وأصلحه"؟!....

وصلت السيارة إلى هدفها...نزل الجميع...سار هو وزوجته في الشارع حسب الوصف والتعليمات...ضيقه تزايد...يحسُّ بالاختناق...كلُّ شيء غريب ...هم كلُّ شيء...اللافتات بلغتهم ...أسماء الشوارع والمحلّات...تنبعث أصوات موسيقاهم وأغانيهم بصوت عالٍ...يكاد يقف ويصرخ : لغتي أين لغتي ؟..أين حروفي وكلماتي ؟...كلُّ شيء

غريب..من يُصّدِّقُ أنا كنّا هنا ....من يصدِّق ؟...آه لو تنطق الشوارع لقالت...ولكن أية شوارع..! لقد استبدلوا كلَّ شيء ..يكاد يبصق من قهره..يهدأ قليلاً ويتذكَّر هدفه من هذا المشوار، تلتصق به زوجته، فلا ملاذ لها في هذا البلد الغريب إلا هو....غريب!! يا لهذه الدنيا!!...معرفته باللغة لا تساعده في الوصول..صحيح أنه تعلَّم بعض لغتهم في السجن ولكن يبدو مقدار ما تعلَّمه غير كافٍ ليقرأ اللافتات بسرعة...يلمح عدداً من الأشخاص يحس بأنه يعرفهم...يسألهم فيدلونه بكلِّ بساطة..يعرفون الأماكن تماماً ..يستغرب..لا يبدو عليهم الضيق مثله....هو يُحسُّ بأنه يكاد يختنق ، هم على عكسه تماماً يبدو عليهم الرِّضا والسعادة، ابتسامتهم تعلو وجوههم ...يعملون هنا ويكسبون الكثير..أحسَّ بالامتعاض...شعوره بالاختناق يزداد ...أخيراً يصلان العيادة...يجلس في غرفة الانتظار ..تلتصق به زوجته التي تحسُّ بالسعادة تغمرها فها هي أخيراً في عيادة بعد أن امتنع هذا الزوج العنيد ....تتنبه للمكان الغريب والأشخاص الغرباء حولها وتحسُّ بالوحشة فتزداد التصاقاً بزوجها لعلَّ التصاقها به يعطيها بعض الطمأنينة والشجاعة، يرفع عينيه...ينتبه إلى أن الكلّ يبحلق فيهم ، هم الغرباء ...هم الدخلاء على هذا المكان..يكاد يشتم...يتذكر ماذا نبهه أحد أصدقائه: "ربما يشكّون بكم أنَّكم (مخربون)، انتبهوا جيداً لكلِّ حركة منكم ومنهم " ...يبتسم في سخرية : ماذا لو تعرفون أنني كنت سجيناً وأنني فعلت بكم الكثير ..وأن جنودكم اعتقلوني وعذبوني و...توقف عن التفكير، لا يريد أن يتذكَّر أكثر، "وهذه الزوجة المجنونة تحضرني إلى هنا ليعالجوني، إنَّها مجنونة فعلاً....

(فعل الكثير ...) من قال ذلك ...لا لم يفعل شيئا" يذكر حتى الآن ...

فجأة ينتصب واقفاً، يمسكها من يدها، تمشي معه وبسرعة إلى الخارج وهي مستغربة وتندب حظَّها في هذا الزوج وهذا الزواج ، أما هو فكان أخيراً يتنفّس بعمق ويحسُّ براحة كبيرة، فقد عزم أمراً...

المدفأة...

المدفأة

تنظر إلى الساعة الكبيرة المعلَّقة على الحائط، تراها تقترب من العاشرة ليلاً، يزداد قلقها وتوترها، تلملم كتبها وأوراقها وموظَّف المكتبة يجول بين الطاولات ليهمس أو ليعطي الإشارة بأنه موعد إغلاق المكتبة، تحمل كتبها وتسحب المقعد بهدوء وتعيده إلى مكانه، تتوجه إلى الباب وهي بالكاد تستوعب طريقها ففي الغد امتحان هام قد يتقرَّر على إثره فصلها من الجامعة إذا هي لم تنجح فيه، تنزل درجات سلم المكتبة الواقعة في الدور الثالث في المبنى القديم الذي لا يحتوي على مصاعد، تصل إلى المبنى الخارجي وتخرج إلى ساحة

الملعب، تنعطف يمينا لتسير في ممرٍ ضيّق قصير ثم لا تلبث أن تنعطف يساراً متوجّهةً إلى بوابة الحرم الجامعي، على يمينها الكافتيريا التي طالما سرقت ساعات وساعات من وقتها وهي تتابع بحماس النقاشات السياسيةبين الطلاب ، ربما الآن تنظر إليها بشيء من الحنق، تصل بوابة الحرم الجامعي الغربية التي تفتح على شارع ضيّق يوصل إلى منزل الطالبات الذي يغلق في العاشرة مساء وعليها أن تكون في المنزل قبل ذلك وإلا ستكون قصة وتضطر إلى قرع الجرس ليعلم الجميع أن هناك طالبة متأخرة عن العاشرة ليلاً ...وتبدأ التعليقات وتأليف القصص..أين كانت ومع من أتت...وهي في غنى عن هذا كلِّه خاصة أنها تعمل مساعدة لمشرفة المنزل لتكسب بعض النقود تساعدها مع النقود القليلة التي يعطيها إياها والدها على مزاجه، لا أحد يصدق بأنها في حاجة للمال فوالدها حالته ميسورة بل ربما يعتبر ثرياً بالنسبة لآباء كثير من زميلاتها، ولكن ماذا تفعل بعقلية والدها الذي لا يؤمن بتعليم البنات بل ربما لا يؤمن بالتعليم أصلاً، النقود القليلة التي يعطيها إياها يرميها في الأرض، وهكذا كان يقول لها ولكن كلُّ هذا الآن غير مهم، المهم الآن هو امتحان غد، لا تعرف كيف وصلت أمورها الدراسية إلى هذا الحد وهذا التدهور، كيف أصبحت مهدَّدة بالفصل من الجامعة وهي التي كانت دائماً متفوّقة ؟! عليها أن تدرس جيداً ما زال لديها الكثير الكثير من الصفحات، كانت قدماها بالكاد تحملانها وهي تقطع الشارع شبه الترابي الذي يفصل الجامعة وبوابة منزل الطالبات، أحكمت الشال الصوفي على رأسها وجزء من وجهها فالبرد شديد جداً والريح قوية تحسُّ بها تضرب جسدها وتعيقها عن المشي، تحاول بكلِّ قوتها التمسك بكتبها ...تقاوم الريح...في الوقت المحدَّد وصلت ، صعدت إلى غرفتها وبدأت تستعد للقيام بعملها كمساعدة لمشرفة السكن ...ومن ثمَّ تتفرَّغ لدراستها ...عليها تفقُّد غرف الجناح المسئولة عنه، تتأكد من عدم تأخر

أو غياب الطالبات، وتتأكد من نظافة الغرف وترتيبها وأهم شيء عليها أن تنتبه إلى عدم وجود ممنوعات في الغرف مثل المدافئ الكهربائية....فخطوط الكهرباء في هذا المنزل القديم ضعيفة ولا تتحمل أن تشغِّل الطالبات مدافئ كهربائية والبرد في المنزل شديد وهذه التدفئة المركزية القديمة لا تفي بالغرض، المسؤولات يعرفن ذلك ولكنَّهن ينكرن وهي تعرف ذلك وتعايشه لذلك كانت إذا رأت مدفأة في أيِّ غرفة تتظاهر بأنها لم ترها...وتكرّر على الطالبات التعليمات : "ممنوع استخدام المدافئ"....، فتحت خزانتها تنظر إلى أسفل الخزانة حيث خبّأت مدفأة لها لم تستخدمها أبداً قبل اليوم ولكن ماذا تفعل فهي ترتجف من البرد الشديد في غرفتها وعليها الكثير من الدراسة، قالت في نفسها : " هذه المرة فقط لأتمكن من دراسة امتحاني جيداً" ...لا تعرف لماذا تكره هذه المدفأة ..كانت لديهم في بيتهم ولم يستخدموها إلا نادراً لأنها تستهلك الكثير من الكهرباء...كان أبوها قد اشتراها من أحدهم ...شاب كان يدرس في الخارج وأنهى دراسته وعاد إلى بلده ومعه شهادته وزوجة أجنبية وبعض الحاجيات من ضمنها المدفأة ..فجنَّ جنون أهله عندما رأوا الزوجة الأجنبية وطردوه هو وزوجته، فاضطر إلى بيع ما معه من حاجيات، عندما أحضرها أبوها ذات ليلة وهو يتحدَّث عن الشاب وكيف اشترى المدفأة منه بسعر بخسْ ..أحسَّت بغضب ...بل ربما كرهت أباها في تلك اللحظة...قالت له : هذا استغلال.....، استشاط غضباً وقال لها أن تخرس وتصمت ولا تتدخل...

منذ ذلك اليوم تكره هذه المدفأة التي اعطتها إياها أمها عندما شكت لها شدة البرد الذي لم تعتد عليه وهي التي نشأت في بلدة دافئة...إلا أنها لم تستخدمها أبداً ...ربما التزاماً منها بقوانين المنزل وربما لأنها تكرهها مع أن أباها اعترف لها فيما بعد أنه اشتراها بسعر أكبر وتعاطف مع الشاب آنذاك ..كان قد شفق عليه ...لكنه قال ذلك أمامهم ليعلِّمهم بأن

لا يستغلَّهم أحد ..."فقط هذه المرة" ...ردَّدت في نفسها وهي تسحب المدفأة من الغطاء الذي لفتها به لتخفيها عن العيون،....."سأدفِّيء الغرفة إلى حين أنهي جولتي المسائية" ...ما كادت تصلها بالكهرباء حتى كان الظلام يعمَّ الغرفة، إذن كهرباء المنزل فعلاً لا تتحمَّل والآن سيعرف الجميع أن هناك من تستخدم ممنوعات...كانت ما تزال مرتبكة عندما سمعت طرقات سريعة وقوية على باب غرفتها وفُتِحَ البابُ الذي نسيت إغلاقه بالمفتاح، كانت المشرفة تقف على الباب وتقول موجِّهة الكلام لها: بسرعة ، قومي بعمل جولة تفتيش لنعرف من لديها مدفأة ..

كانت تقف في وسط الغرفة والظلام يلفُّ كل شيء إلا من ضوء بسيط يتسرّب من النافذة، كانت المرآة أمامها، وجهها الممتقع تخفيه العتمة فلا تميّزه المشرفة جيداً، لم ترفع عينيها إلى المرآة لترى وجهها في تلك اللحظة...

تُرى هل نحتاج إلى مرايا لنرى ذواتنا ودواخل نفوسنا؟

.....

.....

في الصَّباح كانت تقف أمام بوابة المنزل وبقربها حقيبتها تنتظر التاكسي تاركة الجامعة ومنزل الطالبات وراءها....

عشاء رومانسي...

عشاء رومانسي

لن أقول بأنني ذكي لأن هذا حسب موروثكم الفكري لن يدخل ضمن معرفة الذات وإنَّما يدخل ضمن مدح النفس ومادح نفسه كذّاب، لذا سألف وأدور معكم فهذا ما تريدون، سأقول ما أريد قوله ولكن حسبما تريدون، حسناً إذن سأقول أعرف بأني لست غبياً وهذا بالتأكيد لن يكون ضمن مدح الذات فهو في أحسن الأحوال ستعتبرونه وصفاً وفي أسوأ الأحوال ستعتبرونه غروراً ولكن لن أغيِّر الآن طريقتي فقد استنفذت وسائلي القليلة في الكلام وما عاد لي من وسائل أخرى، أنا على يقين تام بأنني لست غبياً فقد كنت دائماً متفوّقاً في دراستي، مهلاً، لا تتهموني بأني كنت أَصُمُّ الكتب والمعلومات، نعم كنت أفعل ذلك ولكن أيضاً كنت أحلُّ أعقد مسائل الرياضيات والفيزياء بذكاء، عدنا للذكاء مرةً أخرى، لا بأس، بإمكانكم أن تحذفوا هذه الكلمة فأنا شخصياً أصبحت أشكُّ بها، أيضاً أنا ناجح جداً في عملي والحمد لله ولكني أصبحت الآن غير واثق من قدراتي والأفضل أن

أعترف بأنني غبي، نعم غبي وفاشلٌ أيضاً، قد تستغربون ذلك فبعد أن مدحت نفسي وقلت بكل ثقة بأنني ذكي وناجح، الآن أقول بأنني غبي وفاشل ولكن ماذا أفعل فهذا ما أثبتته الأيام لي أو بالأصح زوجتي، كنت وما زلت غبياً وفاشلاً مع زوجتي ، تلك المرأة التي اخترتها أو بالأحرى اختارها قلبي من دون كلّ النساء اللواتي عرفتهن والتي بدونها لا أتخيَّل حياتي أبداً، خلت لفترة طويلة أنني أعرفها جيداً ولكنني اكتشفت أني لا أعرفها أو بالأصح أعجز عن فهمها فهي في أغلب الأحيان رقيقة كالنسمة تملؤ البيت أجواءً مريحة هادئة باختصار مميزة تماماً كشخصيتها المميزة وأحياناً أخرى تبدو كعاصفة هوجاء تثور لأتفه الأسباب وتصرخ في وجهي وتنعتني بأبشع الصفات وأنا أحياناً أصمت من الدهشة وأحياناً أبادلها الصراخ بصراخٍ أعلى ولكنها سرعان ما تهدأ وتعود كما كانت ويعود كل شيء هادئاً منتظماً في حياتي، كان ذلك يحدث في فترات متباعدة ولكن في الفترة الأخيرة أصبح يحدث في فترات متقاربة حتى أحسست أنني فعلاً في مشكلة يجب حلّها، حاولت أن أفهم ما الذي يضايقها في كلِّ مرة يحدث إشكال ما فما وجدت سبباً مهماً بالتحديد، قلت لها هذه أشياء سخيفة وأمور تافهة لا يجب أن تحدث مشاكل بسببها وكان ردها لي بحدة أن الأشياء الصغيرة هي التي تظهر شخصية الإنسان وأعماقه ولذلك فهي مهمة، اهتزت ثقتي في ثقافتي وفي نظري للأمور، مثلاً أحياناً أقول لها كلاماً عادياً يقوله معظم الأزواج فترد بحدة : "أنا لست أمَّك"...وأستغرب فمن ذا الذي تحدث أو يتحدث عن أمي!!

حاولت أن أستعين ببعض الكتب –بالسرِّ طبعاً– حتى لا أشعر أحداً وخاصة زوجتي أنني أعطيها أهمية كبيرة فاستغربت ما عرفت، أشياء بصراحة لم أنتبه لها في حياتي ولم أفكِّر بها أبداً، عرفت مثلاً أن طباع المرأة والرجل مختلفة ..أي أنني لا يجب أن أطلب من زوجتي أن

تكون مثلي أو تتصرف مثلي...ربما بالنسبة لكم تكون هذه معلومة عادية ، ولكن بالنسبة لي أعترف بأنها جديدة، هالني كم الكتب التي وجدتها تتحدث عن المرأة والرجل والعلاقة بينهما فأنا لم أحسّ في يوم من الأيام بضرورة التفكير في هذا الموضوع ولم أتوقع أن أحداً يفكّر في تأليف كتاب عن هكذا موضوع، على كلٍّ ، الحمد لله أن كثيرين فعلوا ..ربما لمساعدتي ومساعدة أمثالي ومن هم في وصفي، حاولت قدر استطاعتي أن أعمل ببعض النصائح الواردة في بعض الكتب ولكن دون جدوى، صحيح أن الأمور تحسَّنت نوعاً ما ولكن لم أحس أن المشكلة قد انتهت تماماً .....

منذ أسبوع اقترحت عليَّ ابنتي الكبرى لإخراج والدتها من حالة الملل والضيق التي تعيشها ان أصطحبها إلى مطعم، وحدنا أنا وهي فقط دون باقي أفراد الأسرة، لم نعتد هذا الأمر فدائماً نذهب جميعاً ً، استحسنت الفكرة وطلبت من زوجتي أن تجهّز نفسها، أحسست بريقاً وسعادة في عينيها لم أرهما منذ فترة طويلة، قلت في نفسي الحمد لله، أخيراً عرفت السر، إذا كان الموضوع هكذا...بسيطة...من وقت لآخر عشاء رومانسي نحن وحدنا وانتهت المشكلة..

.....

بالفعل ذهبنا لتناول العشاء وحدنا، كان المطعم هادئاً والإضاءة تعطي جواً رومانسياً كما تحب زوجتي فأنا من ملاحظاتي واهتماماتي في الفترة الأخيرة اكتشفت أن زوجتي رومانسية..

مرَّ العشاء كأحسن ما يكون وقضينا وقتاً طيباً وعندما عدنا إلى المنزل تركتني وغابت فترة ليست بالقصيرة حتى حسبت أنها نامت مع أنني أعرف أن هذه ليست عادتها فهي حريصة دائماً على أن تغيِّر ملابسها وتتجمّل وتتزين وتتعطر وتجلس معي قبل النوم كأبهى

ما تكون ولا تحب أن ينام احدنا قبل الآخر وكنت أتضايق جداً من طبعها هذا فأنا لا أحب أن أتقيَّد بموعد للنوم بل أحب أن أنام متى أريد، على كلٍّ بعد فترة طالت بعض الشيء أتت كعادتها جميلة أنيقة متعطِّرة ، ناولتني ورقة وعادت إلى غرفتها، فتحت الورقة وأنا مندهش، أعلم أن زوجتي تحب الكتابة من وقت لآخر ولكن لنرى؟ ...

توقَّعت قصة حب جميلة أو ما شابه ذلك ولكن لصدمتي إذا بها عن قصة زوجة تعاني وتتعذَّب !!...أبعد كلِّ هذه الأمسية وهذا العشاء الرومانسي !!

ألم أقل لكم بأنني أصبحت أشكُّ بأنني غبي وفاشل!!...

رسالة...

رسالة

لم أفكّر في يوم من الأيام أن أرسل لك رسالة فأنا منذ أن غادرتِ بيت أهلك عروساً لا أعرف لك عنواناً وحتى قبل ذلك عندما كنت أحبك بصمت لم أفكِّر أن أكتب لك رسالة ...ربما كنت لا أريد أن أورطك في مشاكل فأنا أعرف أن أباك صعبٌ جداً ومتزمت جداً وربما لأنني أنظر إلى الورقة والقلم على أنهما خارج عالمي وخارج أساليبي وأدواتي ، كنت أراكِ تمرين كلّ صباح أمام دكان أبي وأنت ترتدين زيَّ المدرسة وأقسم بيني وبين نفسي أنك أجمل فتاة في العالم، لم تكن رؤيتي لك صدفة، ربما ذلك أول مرة وثاني مرة ، بعدها أصبحت أرتِّب لذلك إذ صرتُ أستيقظ باكراً جداً وأفتح لأبي المحل وأجهِّزه للزبائن وأقف امام المحل لأراك وأنت في طريقك لمدرستك، أخاف أحياناً أن ينفضح أمري ولكني كنت أنظر حولي فأجد الجميع كل منشغلاً بأعماله ...لم أفكر حتى أن أتحدث معك أو أعرف عن حياتك مزيداً مما أعرف، فيكفيني أني أعرف من تكونين وأنك جميلة وأنني حين أراك تحدث لي أمور غريبة تربكني وأفسّرها بأنني أحبك...لم أفكِّر يوماً هل تحبينني؟..هل أنا ضمن عالمك؟...لم يخطر على بالي أبداً كل هذا وكل ما كان في بالي أن أنتظر لحين زواج اختيك اللتين تكبرانك فأنا أعلم أن أسرتك لن تزوجك قبلهما ولم أكن أعتبر هذا مشكلة بل ربما على العكس تماما" فرصة فهذا يعطيني فرصة كافية لأرتب

أموري بعد أن تركت الدراسة وتفرّغت لمساعدة أبي في محله وحين علمت بخطبة أختك الثانية علمت أن دوري قد حان وعرضت الأمر على أهلي،...كانت المفاجأة التي لم أتوقعها أن الكلَّ استخفَّ بي وخاصة أخواتي اللواتي كنَ زميلاتك في الدراسة ، قالوا لي: لا تحلم، هذه عقلها في الدراسة فهي متفوقة جداً في دراستها وتريد أن تكمل دراستها ....ذهلت ...هل من المعقول طيلة السنوات الماضية كنت أنتظر بلا فائدة ؟...ماذا كنت أنتظر، بدأت ألوم نفسي لأنني لم أحاول التقرب إليك لأعرف ماذا تخططين ولكن من قال أنه خطر على بالي أنك ربما تخططين لشيء ؟؟ منذ متى تخطط الفتيات لحياتهن؟ هل هذا حظي ؟ أكانت سنوات الانتظار تبعد بيننا وأنا الذي كنت أعتقد أنها تقرِّب بيننا، أرحت نفسي لفكرة أنه ربما ستنهين دراستك المدرسية ...لا بأس سأنتظر سنة أخرى ولكن بعد مرور تلك السنة عاودت طرح الموضوع على أهلي وكان نفس الموقف بأنك ستكملين دراستك الجامعية...وبدأوا يتندّرون عليَّ :كيف لهذه الفتاة المتفوقة الجميلة أن تنظر إليك ؟؟..كانت الصدمة لي كبيرة , أهكذا ينتهي الموضوع ببساطة ؟؟ أكنت اسير في متاهة دون أن أدري ؟؟كيف نظن أحياتا"كثيرة بأننا نتصرف جيدا" ثم تأتي اللحظة التي نكتشف فيها أننا كنا مخطئين تماما" ؟؟ ولكن ما الذي يمكنني فعله ؟؟ استسلمت للواقع وبعد دخولك الجامعة تزوجت، حاولت أن أنسى أمرك وظننت أنني استطعت حتى أحيانا كنت أحس بأني أكرهك وأكره الدراسة والتعليم ....كنت أحقد على كلِّ شيء اسمه دراسة وتعليم ,كان كل ما يفصل الشاب عن الفتاة هو المهر والبيت ومستلزمات الزواج , فلماذا تضيفون سداً جديداً ؟؟....كانت تلك الأمور بالنسبة لي متوفرة ومهيَّأة أما هذا السد الجديد فلم أفكر فيه أبداً ....نعم تزوجت فتاة مثلي لم تكمل تعليمها وكانت سعيدة معي ...وبعد سنوات علمت أنك أيضا تزوجت من شاب كان معك في

الجامعة ....حزنت...نعم حزنت ، أكاد أقسم بأنك لو تزوجتني لكنت معي أكثر سعادة ولكن ماذا أقول، إنه جامعي مثلك ..

لماذا أكتب إليك وقد مرَّ على قصَّتنا أو قصَّتي أكثر من عشرين عاماً...أعلم أنك ستعرفين من أنا حتى دون أن أذكر اسمي ...أو ربما تحتارين وتتوهين فأنا كما علمت فيما بعد ..كان الذين تقدموا إليك كثيرين وأنا مجرّد واحد فقط من قائمة غير المرغوب فيهم ...ولكن الذي حدث أنني علمت أنك ستعيَّنين في منصب كبير ...أي عنوانك أصبح معروفاً لي فقط وإنما للجميع وربما تكون رسالتي أول ما تستلمينه في منصبك الجديد ...أعود مرة أخرى ,لماذا أكتب إليك ؟ وأنا الذي ما كتبت عاشقاً ...هل سأكتب شاكياً أو مهنئاً ؟...نعم فقد وصلت عقدة التعليم إلى ابني الذي أكمل دراسته الجامعية رغماً عني وكلما اقترحت عليه فتاة للزواج يرفض...أود من كل قلبي أن أزوجه ابنة أخي ...فتاة جميلة لطيفة مهذَّبة ...ليس لها اهتمامات أو طموحات دراسية..تماماً كما أريد..أمس عندما تحدثت معه في الموضوع أمام باقي أفراد الأسرة كان الرد كالعادة الرفض...ولكنه هذه المرة أمسك بالجريدة وفتح صفحاتها بيدٍ خبيرة تعرف بالضبط أين تصل ...ثنى صفحات الجريدة ووضعها أمامي وهو يقول: انظر.أريد أن أتزوج امرأة مثل هذه ...

كانت صورتك في الجريدة وخبر تعيينك في منصبك الجديد...

أسقط في يدي وتاهت نظراتي...هل سيكرر ابني نفس المتاهة التي عشت أنا فيها!؟...

في عالم آخر...

في عالم آخر

بعد أن أنهى حلاقة ذقنه وغسل وجهه أخذ يتفحص وجهه في المرآة، قلة النوم والقلق عملا عملهما في عيونه ووجهه ومزاجه وكل حياته، لم يعد يبتسم إلا نادراً، أما الضحك فقد نسيه تماماً، يحس بأن الهم الذي يسكن قلبه أكبر من هموم الناس جميعاً، فقط لو يفهم ...لو يفهم ماذا حدث لربما ارتاح قليلاً ...كيف انقلبت الأمور بهذا الشكل؟!

هي التي كانت بسمتها تملأ قلبه سروراً وضحكتها تجعله يطير ولا تسعه الدنيا من الفرح وكلماتها القليلة كان وقعها في أذنه أجمل من أي صوتٍ آخر في الدنيا، كيف انقلبت الأمور؟!

عندما دخلت حياته نثرت الورود في دروبه وملأتها دفئاً وسعادة وهناء بنظرات عينيها الجميلة وابتسامتها الساحرة وحركاتها البريئة، الآن كل شيء تغيَّر، لا تنظر إليه أبداً وكأنها لا تعرفه، يتمنى أن تنظر في عينيه فقط ثوانٍ بسيطة، يتمنى أن تبتسم له كما في السابق , أن تفرح لرؤيته، حاول بكل الطرق، سأل كل من يتوقع أنه يمكنه مساعدته دون جدوى...فلا هي عادت تحس بوجوده هو ولا بغيره وكأنه غير موجود أو كأنها في عالم آخر...آه من هذا العالم الأخر...ليته يستطيع أن يدخله ...أن يفهم ماذا يحدث فيه ...طيلة عمره يعرف أن هنالك عالمين : الدنيا والآخرة ....عالم الأحياء وعالم الأموات فإذا الموضوع أعقد من هذا وإذا هي تكشف له وجود عالم لا يعرفه أو ربما عوالم أخرى لا

يعرف عنها شيئاً ولا يستطيع أن يقف أمامها إلا عاجزاً ....كأنما حاجز منيع يفصلهما ولا يمكنه أبداً النفاذ منه....يحدِّث نفسه "ليتني أفهم ...ليتني أعرف بماذا تفكرين..أتراك كرهت عالمنا فصنعت لنفسك عالماً تأنسين إليه؟...أتراك رأيت بعيونك الصغيرة القسوة والبشاعة في عالمنا فزهدت به؟...أتراك عرفت كم في عالمنا وحياتنا من جشع وطمع وزيف فعزفت عنه ورحت تصنعين لنفسك عالماً خاصاً لا يدخله أحد غيرك ولا يعرف مفتاحه إلا أنت ...؟! أبحث عن البريق في عينيك فلا أجده وأبحث عن ابتسامتك المشرقة فلا أعثر عليها كيف حدث هذا ؟

وأنا الذي ما اعتدت أن أقف أمام باب مغلق إلا وفتحته وما اعتدت أن أجد أمامي جبلاً شامخاً إلا وصعدته...أجدني الآن أمام صمتك ولا مبالاتك أقف بقامتي الطويلة أمام قامتك الصغيرة عاجزاً ...لا أملك إلا حيرتي وحيرتي وحيرتي , وعذابي يزداد أحياناً إلى حدِّ القهر واليأس والاستسلام فأوبخ نفسي فينمو فيها بعض صبرٍ ورجاء بأمل قد يأتي ..!!

يخرج من غرفته ...تقع عيناه على باب غرفتها المغلق...يفكر أن يدخل غرفتها ويكلّمها....أيام كثيرة مرَّت وكل يوم يتكرّر نفس المشهد ...يقف أمام باب غرفتها ..يهمُّ بالدخول ثمّض يتراجع ويقول ربما في الغد أفضل...من يدري...ربما ...ربما تسرع كما كانت تفعل في السابق ..تقابله بابتسامة عريضة...هو لا يريد أكثر من كلمة واحدة...لقد زهد في كل كلام الأرض وكل اللغات...هو مستعد للتنازل عن قواميس الكون...يتنازل عن كل الكلام الذي يتكلّم به البشر...يريد فقط أن يسمع كلمة واحدة..واحدة فقط تكفيه..تقولها بابتسامتها الجميلة ...يتردَّد لحظة..ويمضي...ربما في الغد يسمع منها الكلمة التي يريدها : بابا...

فهرست

إهداء ص3

جدتي	ص4
أزهار ذابلة	ص9
الوصول	ص14
ق.ق.ج	ص19
المفاتيح	ص25
جريمة	ص30
عيون فدوى	ص34
البنك	ص38
جبان	ص41
الثوب	ص45
شيء أكبر	ص49
علاج	ص53
المدفأة	ص57
عشاء رومانسي	ص62
رسالة	ص67
في عالم آخر	ص72

الكاتبة

ريما محمد مطيع

- قاصة وكاتبة فلسطينية .
- تخرجت في جامعة بيرزيت عام 1987 بتخصص الكيمياء الحيوية.
- عملت في مجال التربية والتعليم .
- لها عدد من المقالات والقصص المنشورة في الصحافة العربية ومنها بعض قصص هذه المجموعة.
- كتبت لزاوية خاصة بها في صحيفة "الحقائق الدولية" بعنوان "في الهدف...".
- حصلت على جائزة القصة القصيرة في فلسطين عام 1980.
- هذه هي المجموعة الأولى التي تنشرها الكاتبة.